دفاع عن الضياع الحضاري

بقلم : بليغ حمدى

obeikandl.com

obeikandl.com

أحبابنا يا عين ..

راحوا معانا ..

رحنا وراحوا عنا ..

لا حد منا انهى ..

كان الراديو يذيع تلك الأغنية .. عندما وجدت نفسى أتغنى بها .. وأستسيغ كلماتها .. وأحفظ موسيقاها..وأرددها من المرة الأولى لسماعى لها ..

وهذا هو فريد الأطرش ! كان كذلك .. وظل كذلك ..طول معرفتى به كجمهور.. وعلاقتى معه كصديق .. وتقديرى له كفنان .

كان أسلوب فريد الموسيقى يتميز بالبساطة الشديدة .. والشعبية التى تحس معها أنك أليف معه ومع ما يغنيه كما لو كنت قد عشت معه طول عمرك .

إن فريد الأطرش كان يكسبك موسيقيًا إلى صفه منذ اللحظة الأولى . ربما من أجل هذا كانت شعبيته الضخمة .. واستمراره الناجح .

إن النجاح ليس ساذجًا .. ولا هو تلقائى .. أو شىء يأتى بالصدفة لكل من يحدث أن يجده فى طريقه . لهذا فإننى أؤمن دائماً بأن منتهى الإدراك والفهم والتعقل .. أن يحاول الإنسان إدخال هذا الاعتبار فى الحساب .. عندما يحاول تقييم الفنان أمامه .. أحيًا أو ميتاً . وبناء على ذلك فإن ما يجب أن يشغلنا عند نجاح لحن مثلا .. ليس هو :

obeikandl.com

كيف نجح .. وإنما السؤال يجب أن يكون هو : لماذا نجح ؟

إن نجاح الفنان فريد الأطرش كان يكمن بالدرجة الأولى فى أنه جعل الجمهور منذ لحظته الأولى ، يحس تماماً بوجوده . . وبتأثيره فى الغناء العربى والموسيقى الشرقية . . وبعد ذلك بمساهمته فنيًّا فى تشكيل ذوق المستمع العربى لفترة زمنية طويلة .

إن أقرب دليل واضح على ذلك هو النجاح المدوى والمستمر لفريد الأطرش فى الدول العربية بشمال أفريقيا .

إن أى قارئ ذهب إلى باريس .. قد لمس بغير شك مدى تعلق المغتربين هناك من تونس والجزائر والمغرب .. بفريد الأطرش .. وربما لا يستطيع بعضهم أن يعرف من اللغة العربية أكثر من كلمات قليلة .. ولكنه يحفظ غالباً أغانى فريد الأطرش عن ظهر قلب .

وفى بلده نفسها ، سواء تونس أو المغرب أو الجزائر ، فإن شعبية فريد الأطرش كانت دائماً واضحة وضخمة ومستمرة .

إن الاستعمار الأجنبى الذى سيطر على تلك البلاد سنوات طويلة ، حاول باستمرار أن يمسخ إلى النهاية إحساسهم بالانتماء العربى .. وحاول دائماً أن يلغى تماماً شعورهم بشخصيتهم القومية .. ونجح أحيانا فى أن يعطيهم صورة الجزء التابع لأوربا والغرب .. وليس صورة الجزء النامى من العالم العربى .

ربما من أجل هذا كان رد فعل المواطن العربى هناك عنيفاً وكاسحًا .. للتمسك فى إصرار بكل ما يشده إلى شرقيته وعروبته .

ولقد كان فريد الأطرش ، فى أغانيه وموسيقاه . أحد الملامح البارزة لتلك الشخصية الشرقية فى الموسيقى والعربية فى الأسلوب .

كان تمسكه بالشرقية فى ألحانه .. وبالعروبة فى صوته يغذى فى التونسى أو المغربى أو الجزائرى الخاضع للاحتلال الفرنسى .. شعوراً مكبوتاً بعروبته ، لهذا كان إقبالهم

الضخم على الاستماع لألحانه ومشاهدة أفلامه وترديد أغانيه . إن فن فريد الأطرش هو جزء من دفاعهم عن أنفسهم ضد الاندماج والذوبان النهائى فى عالم آخر ودنيا وفن آخر .. جاء يكتسحهم من الغرب .

كان فريد الأطرش كذلك بالنسبة لهم فى شمال أفريقيا ..

وكان فريد الأطرش كذلك فى الغناء العربى والموسيقى الشرقية دائماً بالنسبة للمستمعين والجمهور .. وحتى عندما كان فريد الأطرش يترجم إلى العربية إحساساً أعجب به فى الموسيقى الغربية . فإنه كان يترجمه بما لا يتعارض مع الذوق العربى أولا .. وبما يخدم هذا الذوق ثانياً .. وبما يحتفظ له بطابعه الأصيل أخيراً ..

إننى كنت ما أزال صبيًّا صغيراً عندما بدأت أردد أغانى وألحان فريد الأطرش . وإذا كنت أنا قد فعلت ذلك وقتها على مستوى المحدود كمستمع . فإن كثيرين من الملحنين والمطربين قد فعلوا أكثر من ذلك وقتها على مستواهم هم كمحترفين . إن أى دارس لتاريخ الفن يستطيع أن يدرك على الفور كم كان تأثير فريد الأطرش على اتجاهات الملحنين المعاصرين له ابتداء من الأربعينات . . خصوصاً « التانجوهات » « التى بدأها هو فى أغنيته المشهورة « أنا . . واللى باحبه » .

إننى أحسست وقتها بمدى التطور الذى حققه فريد الأطرش فى ذلك اللحن بالذات. وقد أتيح لى أن أعلم بعد ذلك بسنوات طويلة أن الأستاذ محمد عبد الوهاب قد انتابه الشعور نفسه – وأكثر – فى ذلك الحين .

لقد كان فريد الأطرش متمسكاً بالشرقية الأصيلة فى الموسيقى . . ومع ذلك فإنه كان ناجحاً وشعبيًّا فى المحاولات التى بذلها من أجل تطوير تلك الموسيقى . .

ولم يكن نجاحه ، ولا كانت شعبيته ، فى الموسيقى وحدها . . ولكنها امتدت إلى أعماله كلها . . بما فى ذلك أعماله فى السينما . .

إن أى نجم سينمائى عندما كان يقول عن أحد أفلامه إنه نجح .. فإن السؤال التالى

الذى كان يسمعه فوراً من الوسط السينمائى فى مصر هو ، إلى أى حد كان فيلمك ناجحاً ؟ هل اقتربت مثلا من نجاح « حبيب العمر » ؟

إن السينمائيين كانوا يقصدون بـ « حبيب العمر » . . فريد الأطرش ، ولقد كان نجاح أفلامه السينمائية هو فى حد ذاته مقياساً يقيسون به الآخرين .

مع هذا كله .. فإن نجاح وشعبية فريد الأطرش .. كان أقل مما يستحق ، والأكثر من هذا ، أقل مما يستطيع !

لم يكن فريد الأطرش يعرف ، أو يجيد ، استغلال نفسه . إنه فى حياته كان إنساناً بسيطاً جداً ، يعيش ليومه .. وليس التخطيط للمستقبل جزءاً من مشاغله أو همومه اليومية . إن هذا الجانب من شخصيته ، وجوانب أخرى كثيرة ، لم يتح لى أن أعرفه إلا عندما توثقت علاقتى به كصديق فيما بعد .

كان فريد مقبلا على الحياة تماماً .. وإلى آخر مدى .. كان يعيش كملك .. أو كأمير ، ولم يكن يهمه فى قليل أو كثير أن يستغل هو نفسه .. أو أن يستغله الآخرون .

ولكى أعطى مثالاً واحداً على ذلك .. فإننى أذكر القارئ مبدئيًّا بأن فريد الأطرش كان عازفاً بارعاً على آلة « العود » . . إن لم يكن هو أعظم عازف فى العالم العربى كله . ولأنه لم يكن مجرد عازف .. وإنما كان أيضًا موسيقيًّا ، وبالتَّالى فهو يفكر فيما يعزفه .. فإن احتمالات النجاح الفنى والتجارى كانت أمامه على مصراعيها .. لو أنه قدم للجمهور مجموعة أسطوانات من العزف المنفرد على العود .. أو العزف المنفرد مصحوبًا بفرقة موسيقية .

ولكنه لم يفعل ذلك .. بكل أسف .

وأذكر أننى عندما بدأت أستحثه على ذلك ، وكان هذا قبل رحلته الأخيرة إلى لندن اقتنع وانفعل وتحمس للفكرة .. وقال لى : يا ريت نعمل الفكرة دى سوا .. وأنا أول ما أرجع من لندن نقدر نعمل خمس أو ست أسطوانات فوراً ..

إنه لم يفعل هذا فى تلك المرة .. لأن الموت كان أكبر منه .. ولكنه كان يستطيع أن يضعها دائماً طوال سنوات عديدة ضاعت منه .

ذلك أن فريداً الأطرش ، كتعبيرنا فى الوسط الفنى : « يقول .. أو « قوال » . إنه يقول ما يريد .. ويعبر عنه .. فى شرقية وأصالة .. وتطور ! هذا هو انطباعى المبكر عنه منذ عرفنا له لحن المرحومة أسمهان « قهوة . . يا مين يقول قهوة » . . ثم فى اللحن الذى غناه هو بصوته « أنا .. واللى باحبه » .

إن فناناً يمتلك موهبة فريد الأطرش ، وقدرته ، وتفوقه ، وإحساسه .. كان يستطيع أن يعطى المكتبة العربية أضعاف أضعاف ما أعطاه .. كان يستطيع أن يفعل ذلك فى ألحانه وأغانيه .. وحتى فى أفلامه . إن من يرى ويسمع اسكتشاته الموسيقية والغنائية الجميلة فى أفلامه السينمائية ، يحس على الفور أن بذرة النجاح الضخم فى المسرح الغنائى كانت موجودة فى فن فريد الأطرش .

إن التفسيرات لذلك كثيرة . . ولكننى شخصياً ، مقتنع بتفسيرين . . أو بسببين .

السبب الأول هو أن إقبال فريد الأطرش على الحياة .. وحبه لها .. قد استهلك جزءاً كبيراً من وقته .. بحيث إنه كان مشغولا أساساً بيومه .. وليس بالتفكير فى مستقبله .

والسبب الثانى كان هو طبيعة شخصية فريد الأطرش نفسه .. إن فريد كان معتزاً للغاية بنفسه ، وعنيداً إلى آخر مدى .. حتى فيما لا يخدم فنه هو .. !

إن هذا هو السبب فى أن المرحومة أم كلثوم لم تغن من ألحانه !

إن فريد الأطرش لم يعرف كيف يتعامل مع سيدة فى الغناء العربى كأم كلثوم . لقد كانت له طريقته هو فى التعامل .. وهى طريقة كانت – فضلاً عن اقتناعه بها – جزءاً من شخصيته هذه الطريقة هى التى جعلته يرى مثلا .. أن فناناً كبيراً وناجحاً وشعبياً مثله .. لا بد أن يكون له حق اختيار الكلمات التى يلحنها لكى تغنيها أم كلثوم .

وأم كلثوم ، – من جانبها – كانت ترى أن من حق فنانة فى مكانتها أن تختار هى

الكلمات التى تنفعل بها ، والتى تعطيها للملحن لكى يلحنها .

ولهذا السبب لم يتم هذا اللقاء الفنى .. الذى كان منتظراً وممكنًا .

لقد اختار فريد الأطرش قصيدة « الأخطل الصغير » « وردة من دمنا » لكى يلحنها ويعرضها على أم كلثوم لكى تغنيها .

إن أم كلثوم لم تغنها .. ليس اعتراضاً على القصيدة ذاتها .. ولكن لسبب آخر .. حددته هى بكلماتها : ما دام فريد عاوز يلحن لى . . إذن . . يلحن لى أغنية حفلة . . أغنية تصلح لما أؤديه على المسرح فى حفلاتى ..

ولكن فريد رفض أن يفعل ذلك .. إلا إذا غنت له أم كلثوم أولا أغنية « وردة من دمنا » لقد اعتبر هذا التصرف من أم كلثوم هو – أولا – إهانة له .. أو تقليلا من شأنه .. وهو أمر لم يكن صحيحاً بالطبع .. وهو ثانياً تعامل معها بعناد .. هو فى الحقيقة جزء طبيعى – وغير متعمد – من شخصيته .

وهكذا خسرنا لقاء فنيًّا كان سيصبح مثمراً جدًّا ، وناجحا للغاية !

ولكن ، تلك كانت هى طبيعة فريد الأطرش !

لقد كانت طبيعته لا تسمح بتكوين العلاقات اللازمة مع المطربات والمطربين الذين يحتاج إليهم لنشر ألحانه .. إن المرحومة أسمهان – أخته – ماتت مبكراً لسوء حظه .. وهى فى حد ذاتها كانت تستطيع أن تكون ناشراً ناجحاً جدًّا لألحانه .. لأنها كانت تستطيع أن تكون موصلا إضافيا ممتازاً لألحانه إلى آذان الجماهير العربية ..

بعد أسمهان .. لم يستطع فريد الأطرش ، بحكم شخصيته وطبيعته ، أن يقيم العلاقات التى تسمح له باكتساب ناشرين إضافيين – فوق صوته هو – لألحانه إلى الجمهور .. ومن الممكن أن تكون هذه المشكلة مزعجة لأى فنان .. لكنها لم تزعج فريداً فى كثير أو قليل .

كان فريد الأطرش الملحن يفضل الاعتماد على فريد الأطرش المطرب ! إنه

لم يخطط أبداً ، أو لم يتصور أبداً ، أهمية أن يكون له ناشرون آخرون غير صوته .. بالرغم من أنني مؤمن بأن كل المطربات والمطربين الآخرين كانوا يحبون العمل معه والغناء من ألحانه .

وربما كانت الفنانة صباح هي الاستثناء البارز هنا .. لأن صباح كانت تربطها صداقة وثيقة بفريد الأطرش .. لهذا أعطاها فريد عدة ألحان شعبية حققت صباح – بها ولها – نجاحاً كبيراً . . كان يجب أن يكون مشجعاً لفريد على أن يتعامل بموسيقاه مع الأصوات الأخرى المنتشرة ..

إنني أسوق ذلك لكي أدلل على أن فريداً لم يكن يخطط أبداً لنفسه . إنه كان في فنه – مثلما كان في حياته الشخصية – تلقائيًّا وبسيطاً ومقبلا على الحياة الآن ، وفي هذه اللحظة ، قبل أن يفكر في الحياة باعتباره الغد ، والمستقبل .

لم يكن فريد يعيش لمستقبله ، ولا حتى يفكر في مستقبله . كان يريد فقط أن يفكر في الحياة باعتبارها الحاضر . إنه حاضر له ماض ولكن ليس له مستقبل . لقد انعكس هذا الإحساس على كل مجالات حياة فريد وفنه ، بما في ذلك حياته الشخصية .. وحتى في علاقته بالمرأة .

إننا جميعاً نعلم أن فريداً لم يتزوج ، بل إنه كان دائماً يرفض فكرة الزواج من أساسها في كل مرة يحس فيها بضرورة الاختيار واتخاذ موقف .

إن فريداً لم يكن يثق بالمرأة .. مطلقاً ! كان يريد من المرأة دائماً أن تعيش على هامش حياته .. وليس في مكان الصدارة من حياته ، أو حتى داخل حياته . إنني سألته مرة كصديق : لماذا أراك تحس دائماً بفزع ضخم من فكرة الزواج كلما فرضت عليك الحياة هذا الموقف ؟

وكان فريد – رحمه الله – يجيب : نعم . أما الفزع فهذا صحيح .. أما الموقف الذي تفرضه على الحياة فهذا غير صحيح .. إنني كنت دائماً أختار عدم الزواج ..

لان القدر لم يضع فى طريق أبداً المرأة التى أثق فيها ثقة كاملة ..

هل كان لهذا الشعور تأثير على فن فريد الأطرش ؟

إننى أقول : نعم !

فالفنان ، مهما كانت رغبته فى الفوضى والانطلاق والبوهيمية ، محتاج دائما إلى الشعور بالاستقرار العاطفى . والفنان محتاج دائماً إلى من تكون محل ثقته .. لأن هذا يعطيه فى النهاية شعوراً يؤكد ثقته بنفسه .

ولقد كان فريد واثقاً بنفسه ، ولكنه لم يجد من يثق فيه .. أو على الأصح ، من يثق فيها . ربما من أجل هذا كنا نجد الحزن طابعاً غالباً على معظم أعمال فريد الغنائية . بل إننى أقول أكثر من ذلك . فعلى المستوى الشخصى كان فريد الأطرش مقبلا على الحياة ، ومحبًّا لها ، ومتفائلا بها ..

وعلى المستوى الفنى كانت أغانى فريد تعكس شعوراً بالحزن .. هو فى حد ذاته شعور مضاد للشعور الأول .

أيهما كان الأصل . : وأيهما كان الصورة ؟

أيهما كان الحقيقة .. وأيهما كان الافتعال ؟

لا أحد يدرى بالضبط .. ولكن الذى أرويه هنا هو أن هذا التناقض قد أثر بدرجة ما على فن فريد الأطرش .. بمثل ما أثرت عليه تناقضات كثيرة أخرى فى حياته .. إنها أثرت على كل شىء فيه .. وفى النهاية أثرت على فنه .

إننى شخصيًّا أعتقد أن فريد كان يستطيع أن يعطى للفن أضعاف ما أعطى .. لو قدر له أن يجد فى حياته الناصح الأمين .. أو الصديق الوفى .. أو الشريك المخلص .

إنه نجح جدًّا ، بالرغم من هذا كله .. وكان سينجح أكثر وأكثر .. لو توفر له هذا كله ! إن فريداً الأطرش ، الفنان ، أعطانا فى موسيقاه الملامح الشرقية الأصيلة المتطورة .. التى تخلو من الرتابة .. ويبرز فيها الشعور بالإيقاع .. وتتميز فيها الجملة

الموسيقية بالوضوح والبساطة . إننا نستطيع أن نرى هذه الصفات كلها فى ألحان مثل « قهوة » لأسمهان .. أو « أنا واللى باحبه » .. و « الربيع » .. و « أول همسة » وغيرها كثير .. بصوته هو .

إن تلك الألحان كلها دليل على مدى شرقية موسيقى فريد الأطرش .. ومدى تمسكه هو بتلك الشرقية .

ولكن بعضهم يحلو له أن يسأل ، هل كان تمسك فريد الأطرش بالشرقية فى موسيقاه هو محاولة منه بالوقوف ضد التطور ؟

إننى أبادر وأقرر أن الإجابة هى بالنفى .

بل إننى أقول أكثر من ذلك .. إن فريداً الأطرش أعطى الموسيقى الشرقية أفكاراً جديـدة . . ومتطورة . . وممتـازة . . وجريئـة . . لم يعطهـا أى ملحن آخر معاصر له .

ربما من أجل هذا كان فريد الأطرش مرشحاً – أكثر من غيره – للخروج بالموسيقى الشرقية من آفاقها المحلية .. إلى المجال العالمى .

إن فريداً نفسه كان يفرح بذلك .. ولكنه لم يكن يعمل لذلك !

لقد كان يستطيع ، وكان يفعل ، وكان ينجح فعلا .. ولكن ، بعد قليل ، لا تلبث حياته اليومية ، وإقباله على حياته اليومية ، أن يمتصه من هذا كله .

إن فريد الأطرش – رحمه الله – كان يقول دائماً : نحن شرقيون .. ولنا طابع متميز فنيًّا وغنائيًّا وموسيقيًّا .. وإذا عرفنا كيف نخرج إلى العالم بطابعنا هذا فى موسيقانا .. فسوف يرحب بنا العالم ويفتح لنا ذراعيه .

ولقد خرج هو إلى العالم ، ورحبوا به .. وفتحوا له أذرعهم .

إن ألحاناً كثيرة وضعها فريد الأطرش ، وغناها ، أعيد توزيعها وغناؤها فى باريس وأماكن أخرى كثيرة .

وجمهوراً كبيراً كان ينتظر من فريد الأطرش أن يكمل هذه المحاولة . لأنه كان أكثر من غيره – هو المرشح للنجاح فيها .

ولكنه لم يفعل .

إن السبب هو – مرة أخرى – طبيعته هو . . وحياته هو . .

كان فريد فى حياته بسيطاً .. وتلقائيًّا .. وواضحاً .. وصريحاً . إن صراحته كانت تصبح أحياناً قاتلة .. إلى درجة أن الصديق الحقيقى له كان يهم فى كل مرة بمقاطعته لكى يحول بينه وبين أن يدلى هو برأيه صريحاً فى طرف آخر موجود أمامه . ولكن الصديق كان يفاجأ فى كل مرة بأنه قبل أن يفعل ذلك .. قبل أن يتدخل .. فإن فريداً نفسه يكون قد قال كل ما يريده ، وكل ما يحس ، بوضوح واختصار وبساطة .. ولكنها البساطة التى تكون فى أحيان كثيرة أسوأ من القتل !

وكان فريد فى حياته كريماً .. وبشوشاً .. ومضيافاً .

وفى كل مرة كنت أصل فيها إلى بيروت .. فإننى ، عند أول مكالمة تليفونية أجريها مع فريد الأطرش ، أفاجأ بترحيبه وحرارته وإصراره على أن يرى بعضنا بعضاً فوراً .

إننى لم أكن وحدى فى ذلك . . ولكن فريداً كان كذلك مع كل أصدقائه .

إنه كان يحيط نفسه بعشرات من الأصدقاء ، فى أى وقت من الليل أو النهار . وإذا تركت له نفسك فإنه يستطيع أن يملأ لك وقتك تماماً لمدة أربع وعشرين ساعة فى اليوم . إنه يرتب لك كل ساعة ، ويشغل لك كل ثانية .. وهو يفعل لك ذلك بغير افتعال .. وبغير ملل .. !

إن النجاح الأكبر لفريد الأطرش كان يتركز فى أنه نقل هذه البساطة ، وهذا الصدق ، إلى أعماله . . والتى انتقلت بدورها من أعماله . . إلى مستمعيه .

لهذا كانت شعبية فريد الأطرش .. ولهذا كان نجاحه .

لقد استطاع فريد الأطرش أن يساهم بحق ، وبشكل ملموس وواضح ، فى

تشكيل ذوق المجتمع العربى لسنوات طويلة مضت .. وسوف يستمر هذا التأثير قويًّا لسنوات طويلة قادمة .

بقيت نقطة أخيرة تتعلق بفريد الأطرش ؛ . كمطرب .

إن كل فنان يستطيع أن يقرر فوراً أن صوت فريد الأطرش كان متميزاً تماماً بين كل من عاصروه من المطربين .

كان صوته معبراً وحساساً . . وشديد الاحتمال . . ومتنوع الطبقات . . ومسرحى الإطار . إنه كان من أكثر الأصوات صلاحية للاستغلال الفنى المسرحى .. وفريد نفسه .. قبل تدهور حالته الصحية .. كان من القلائل الذين يستطيعون الغناء على المسرح لمدة ساعتين وثلاث وأحياناً أربع ساعات .. وهو فى كل مرة قادراً على أن يجدد ويبتكر فى حدود اللحن الجديد الذى يقدمه . . أو حتى فى حدود لحن مستمر ومضت عليه عشرون أو خمس وعشرون سنة . . مثل لحن « أول همسة » . . أو « الربيع » . إنه كان قادرا على أن يعطى الجمهور إحساساً فى كل مرة بأنه يغنى له هذا اللحن لأول مرة .

ولقد كان فريد يحتفظ لنفسه بطابع خاص ومتميز فى أدائه . . حتى إن المستمع يحس بالألفة مع هذا الصوت وبالحب الشديد . . وإن الأذن العربية ظلت – وسوف تظل – سنوات طويلة تطرب تماما لهذا الصوت .

ربما من أجله لم تفشل أغنية لفريد الأطرش .

ولم يفشل لحن لفريد الأطرش . .

ولم يفشل فيلم لفريد الأطرش .

لقد كان فريد ناجحا دائماً . . والنجاح ليس ساذجاً كما قلت من قبل . . النجاح يعرف جيداً أن يختار من يستحق النجاح .

ولقد استحق فريد النجاح . . واستحق أيضا ما هو أكثر من النجاح .

وكم كنت أتمنى أن يطول العمر بفريد الأطرش . . لكى يعطينا مزيداً من الموهبة . . ومزيداً من النجاح . . ومزيداً من الأصالة . . ومزيداً من الفن .

بليغ حمدى

obeikandl.com